ألبير ميمي
وحدود تفكيك الميثولوجيا البيضاء

د. عبد الوهاب شعلان
جامعة محمد الشريف مساعدية
سوق اهراس/ الجزائر.

الملخص:

تندرج هذه المقاربة في سياق الدراسات الثقافية ما بعد الكولونيالية، وتروم اقتفاء أثر بعض الكتابات الفكرية لبعض يهود المستعمرات المغاربية، وهي تعري تحيزات الخطاب الكولونيالي المتغطرس، وتكشف عن أساليب السيطرة فيه، وتحفر في ثغراته وتناقضاته.

هكذا تشكل فكر مناهض لما سماه جاك دريدا "الميثولوجيا البيضاء"، بوصفها منظومة تاريخية وحضارية مشكلة من صور نمطية عن الذات والآخر. وفي هذا السياق تتجلى قيمة ما يطرحه المفكر والروائي التونسي اليهودي ألبير ميمي في كتابه المهم portrait du colonise حيث يحلل بعمق نظام هذا الفكر وأسسه الايديولوجية ونمطه الأسطوري.

Résumé

Cette approche s'inscrit dans le contexte des études culturelles postcoloniales .elle revient sur les traces des écrits de quelques juifs des colonies maghrébines. une œuvre qui démasque ce discours colonialiste arrogant et qui met a nu ses mécanismes de domination, ses lacunes et ses contradictions.

C'est ainsi qu'a vu le jour une pensé contre ce que Derrida l'appelait la mythologie blanche avec tout ses sténotypes sur soi et autre. C'est dans ce cadre que Memmi analyse profondément le système, ses fondements idéologiques et son type mythologique.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/465

توطئـــــة :

تتبـع هـذه الدراسـة إذن آثـار بعـض المثقفـين اليهـود فـي المسـتعمرات المغاربيـة خصوصـا، وترصـد أشـكال الـوعي والممارسـة تجـاه الوضـعية الكولونياليـة، متخـذة مـن مواقـف وتحلـيلات المفكـر والروائـي والسوسـيولوجي التونسـي ألبيـر ميمـي Albert Memmi منطلقا لفهم هذه الحالة ورسم عناصرها.

وتفتـرض الدراسـة أن مواقـف الـرفض أو التوجس - علـى الأقل - التـي أبداها كثير من المثقفـين اليهـود ذوي الأصـول المغاربيـة تجـاه المنظومـة الكولونياليـة، تنـدرج ضـمن مسـار مقاومـة الشـرّ، وتفكيـك نسـق النزعـة الشـمولية Totalitarisme، والحفـر فـي أشـكال الهيمنـة والقهر، والكشف عن مظـاهر البربريـة المتخفية في ثنايا الحضارة الحديثة، ثم تعريـة كافـة أنمـاط التمركز وأسـاليب حضـور السلطة، وهـي –كمـا نعلم- من السمات المحورية في الفكر الذي أنتجـه اليهود في العصر الحديث.

1- المثقفـون اليهـود فـي المسـتعمرات وأشـكال الوعي:

يمكـن أن نستحضـر ثلاثـة أشـكال مـن الـوعي والممارسة لدى يهود المستعمرات تجـاه الحركـة الاستعمارية ومنظومتها الشاملة، ومـن ثمّـة تجـاه الوطن الأمّ وثقافته:

أ- ثمـة مـن تمـاهى مـع الثقافـة الغربيـة ورفـض الأصـول الشـرقية، واعتبـر الانتمـاء إلـى هـذا الوسـط الشـرقي مـن مكائـد التـاريخ، بـل وصـمة عار. يمثّل هذا التيـار المثقف اليهودي المصـري ألان غـريش Alain Gresh الـذي يـرأس صـحيفة Le Monde Diplomatique الشهيرة. يقول غريش:«على الرغم من جنسيتي المصرية، لم أشعر يومـا بـأنني مصـري، وخلافًـا لكثير من الأصـدقاء الـذي غـادروا العـالم العربـي فـي الفتـرة نفسـها، فـإنّني لا أحـس بـأيّ حنـين، فأغاني أم كلثوم لا تهزّنـي، ولا أدخّـن النـارجيلا، ولا أسارع إلى الأفلام والروايـات العربيـة. إنّنـي أشـعر بـأنّني فرنسـي، محظـوظ بكـوني كـذلك، ومحظـوظ بهـذه الجنسـية، إنّنـي مثـال للانـدماج، ليس لدي دم فرنسي، ولكن أجد نفسـي بعمـق فـي النموذج الجمهوري»[1].

ب- صـنف آخـر مـن يهـود المسـتعمرات اتخـذ مسافة للتأمل في قضايا الهويـة والانتمـاء واللغـة، وقدّم عمـلاً فلسـفيا وفكريـاً غنيّـا فـي هـذا الشـأن، يبرز جاك دريدا J. Derrida مثالاً جيّدا في هذا السـياق، لقـد تمـاهى التفكيـك عنـده بوصـفه استراتيجية في المعرفة مع أسئلة الذات والتـاريخ والهوية. وهكذا لا يفتأ دريدا يستحضر في أعماله

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/465

مفاهيم التمزّق والتشرّد والحنين والتيه مع مفاهيم التفكيك والتشتت والتبعثر والأبوريا Aporia .

كان كثيرًا ما يردّد " Je n'ai qu'une langue, or ce n'est pas la mienne "إني لا أملك إلا لغة واحدة، ومع ذلك فهي ليست لغتي"[2]. وفي كتابة شبه السيري "أحادية الآخر اللغوية" Le monolinguisme de l'autre إفضاءات يشوبها حس تراجيدي تجاه عذابات المنفى والحنين وتمزّق الهوّية. هكذا يصف رحلته من الجزائر إلى فرنسا لأوّل مرّة: «لقد عبرت البحر للمرّة الأولى جسداً وروحاً، بل عبرته جسداً من دون روح فهناك شعور داخلي يمنعني من الإقرار بعبوره على متن باخرة تسمى "مدينة الجزائر" Ville d'Alger، وكان عمري حينذاك تسعة عشرة سنة ... »[3]. وفي السياق نفسه يستحضر تجربة نزع المواطنة عن كافة يهود الجزائر في عهد حكومة فيشي، وما رافق ذلك من تصدع في الذاكرة لدى شعب بأكمله أو جماعة وطنية على الأقل.

ولكن إزاء هذا الحنين وتراجيديا الانتماء، تظلّ الجزائر مجرّد ذكرى، إنّها لا تتعدّى الجذور الراسخة في الذاكرة، دون أن تتحوّل إلى مادة للفهم والإنتاج المعرفي، مجرّد حلم مثقف تائه وطوّاف، يعدّد شواطئ ومرافئ رحلته. الجزائر مرفأ في مسيرة الشتات. عندما سئُل: هل تحسّ بأنّك يهودي؟ أجاب: «إنّني في الواقع أحسّ بأنّني يهودي وغير يهودي بالمرّة. وحتى وإنْ عُرفت بأنّني يهودي متشرّد، ميّال إلى الأسفار – رغم أن هذا الميل عديم الصلة بيهوديتي- فإنّني متعلق بجذوري، وهي الجزائر واللغة الفرنسية»[4]. لم تكن الجزائر في نظر دريدا سوى صورة طيفية Simulacre، شأنها شأن الكتابة والنص في الاستراتيجية التفكيكية.

وقريبا من صورة دريدا، يبدو ألبير ميمي متوجّساً، متحفّظا، غير واثق الخطى إزاء الانتماء التونسي والعربي، فكثيراً ما يتحدّث عن أشكال الإقصاء التاريخي والاجتماعي داخل مجتمع ذي ثقافة إسلامية، قد لا تسمح – في بعض الأحيان- بالالتقاء والحوار والاندماج. يقول ميمي: « وإذن فمّ نعاني نحن؟ ببساطة إننا نعاني من أزمة الذاكرة ومشكلة الاعتراف... كما نعاني من تجاهل الأجيال الشابة من مشاركتنا النضالية في تاريخ الوطن»[5]. يستحضر ميمي مفاهيم المنفى والوطن المفقود التي نجدها أثيرةً عند أستاذه الشاعر الجزائري الذي عاش في تونس جان عمروش الذي كان يقول: «مهما فعل، فإنّ الإنسان منفيّ، ومن ميزات الشاعر هو الإحساس بألم المنفى أكثر من غيره، أحيانا ينتفض، ولكنه في انتفاضته يبني عالماً آخر غير العالم الذي يعيش فيه»[6]، يشيّد جنته المفقودة ومنفاه الميتافيزيقي.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/465

جـ- أما الصنف الثالث من يهود المستعمرات فهو الذي اختار الالتزام والنضال وإبداء المواقف الصارمة تجاه المشروع الكولونيالي. يتميز حضور هذا التيار بانسجام واضح بين الفكر والعمل، بين الالتزام السياسي والإيديولوجي والمخاطرة العملية، ذلك أنّ المثقف في نظر إدوارد سعيد من سماته المخاطرة والالتزام.

يمثّل هذا الاتجاه جيلٌ من يهود الجزائر الذين اختاروا الاصطفاف مع المقاومة المسلحة والحركة الوطنية الاستقلالية، ومنهم هنري علاّق Henr Alleg المفكر والمناضل الشيوعي الشهير، وموريس أودين Maurice Audin الذي انتهى نهاية تراجيدية على يد القوّات الفرنسية، ولم تعرف جثّته إلى الآن، ودانيال تمسيت DanielTemsit المفكر والمناضل الحركي الذي عمل في شبكة حسيبة بن بوعلي.

يقدم دانيال تمسيت نموذجاً ناصعا لليهودي الجزائري المندمج مع الجماعة الوطنية، اليهودي الذي يرفض دولة إسرائيل بوصفها دولة كولونيالية، ويعتبر أن مصيره ومصير جماعته متعلق بالجزائر. كان يقول: «لم تفكر الجماعة اليهودية أبداً أنّ حرب التحرير الجزائرية يمكن أن تحمل بذور معاداة السامية – فأنا لا أحبّ هذه الكلمة لأنّنا كُلَنا ساميون- أو أن تحمل ما هو مضاد لليهود، إنهم لم يعتبروا أنفسهم جماعة مهدّدة»[7].

2- ألبير ميمي وصورة المستعمِر والمستعمَر:

تشكّل حالة ألبير ميمي من خلال مؤلفه المحوري "صورة المستعمَر" Portrait du colonisé الذي ظهر سنة 1957، بتقديم جان بول سارتر، وكان في الأصل قد ظهر منذ 1953 في مجلتي Les Temps modernes التي يشرف عليها سارتر نفسه، ومجلة Esprit المقربة من بعض الأوساط الكاثوليكية في فرنسا.

لا يندرج عمل ألبير ميمي ضمن منظومة ما يعرف بفكر ما بعد الكولونيالية post-colonialisme كما يظهر لدى أعلامه الكبار هومي بابا وسبيفاك وإعجاز أحمد من المدرسة الهندية، أو لدى إيمي سيزير A. Cesair وفرانز فانون F. Fanon وسانغور L. S. Senghorمن المدرسة الزنجية Négritude. فعند هؤلاء تركز العمل على تشخيص المنظومة الكولونيالية وتقويض منطلقاتها المعرفية والتاريخية والإيديولوجية ومقاومة شرورها من جانب آخر. وقد يبدو ذلك واضحا في صرخة فانون المشهورة في "معذبو الأرض" Les damnées de la terre قائلا:«هيّا أيّها الرفاق، إنّ اللعبة الأوروبية انتهت كليّاً، يجب أن نبحث عن شيء آخر» Allons camarades, le jeu européen est définitivement terminé, il faut trouver autre chose[8] مبينا أنّ أوروبا التي سارت بجنون، فقدت القيادة، وهي

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/465

الآن تسير نحو الهاوية Abîmes. وهو ما يذكرنا بمقولة روجيه غارودي R. Garaudy بأنّ الغرب هو مجرّد طارئ وحادث L'occident est un accident.

كان فرانز فانون إذن نموذجاً ممتازاً للمقاومة المؤسسة على نسق فكري غنيّ، يستقي من منابع فلسفية ثرّية ومتعدّدة من الماركسية والتحليل النفسي وغيرها. كان كما قال فيه ألبير ميمي: «نبيّ العالم الثالث، وبطل رومانسي لتفكيك الاستعمار »[9].

يقدّم ألبير ميمي عملاً فكرياً من وحي تجربة المعاناة، بوصفه منتمياً إلى طائفة يهودية في تونس زمن التواجد الفرنسي، يشخّص فيه الحالة الاستعمارية تشخيصاً نفسياً بالدرجة الأولى، منطلقاً من أنّ الوضعية الكولونيالية تصنع مستعمِرين ومستعمَرين على حدٍّ سواء:

La situation coloniale fabrique des elle fabrique colonialistes comme des colonisés[10]

يميّز ميمي بين أنماط ثلاثة من المستعمِر: Le coloniale, lecolonisateur, le colonialiste فالأول Le coloniale هو الأوروبي الذي يعيش في المستعمرات دون أن تكون له امتيازات، وهو نموذج لا وجود له، لأنّ كلّ الأوروبيين يحظون بامتيازات كبيرة. أما Le colonisateur فهو إنْ كان متضامناً مع المشروع الكولونيالي ومدافعاً عنه، إلاّ أنّه – بحكم عوائق اجتماعية وسياسية- لا يتمثل الاستعمار تمثلاً إيديولوجياً. إنّه ذلك النمط من المستعمر رهين الهواجس والمخاوف، المشتت بين العدالة والحقيقة. وفي المقابل يبدو Le colonialiste حاملا مشروعاً شاملاً يؤسّس من خلاله وجوده ويبرّر حضوره، مازجاً بين التاريخ والأسطورة، والفلسفة والتحليل النفسي ...[11]. وفي السياق نفسه يطرح ميمي حالة يهود المستعمرات المشتتين بين النموذج الكولونيالي القائم ووضع الأهالي البائس.

ويمكن أن تتبّع آثار هذا التحليل وفق الأقسام الآتية:

أ- المستعمِر الرافض Colonisateur: تناقضات وتمزقات:

يبلور ميمي صورة المستعمِر الرافض Le colonisateur qui refuse بوصفه ذا إرادة طيبة، يجوس خلال مخاوفه وهواجسه وتمزّقاته ومحنة الاختيار والالتزام لديه، ماذا سيفعل؟ «أليس لديه مخرج آخر غير الخضوع للمجموعة الكولونيالية أو الرحيل؟ ذلك أن تمرّده أوصد أمامه الأبواب وعزله وسط صحراء استعمارية. لماذا لا يدق على أبواب المستعمَر الذي يدافع عنه، والذي لاشك أنه سيفتح له ذراعيه باعتراف؟ لقد اكتشف أخيراً أنّ هذا الملجأ هو ملجأ اللاعدالة والآخر هو ملجأ الحق»[12]. تزداد

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/465

توجّساته عمقاً عندما يقتنع بعدالة المستعمَر في قضيته، ولكن تضامنه ومساندته سيحفّهما كثير من الخوف والقلق: «إنّه ليس منهم ولا يرغب في أن يكون، إنّه يتوقّع بضبابية يوم تحرّرهم واسترجاع حقوقهم، وهو لا يأمل فعلاً في أن يشاطرهم وجودهم، حتّى في لحظة الحرّية»[13].

لقد تحرّر هذا المستعمِر الرافض من رعب الصور النمطية التي صنعتها الآلة الإيديولوجية الكولونيالية، تحرّر من الحلم الغرائبي Exotique، وبدا المستعمَر أمامه بوصفه كيانا حقيقياً في سياق سوسيولوجي بائس، ولكن أنّى له أن يتحرّر من حقائق التاريخ؟ أنّى له أن يفلت من حجج المدافعين عن النموذج الاستعماري من بني جلدته؟ ومع ذلك فهو يثق في عبقرية الشعوب، ويعتبر أن الوضع الاستعماري هو وضع تاريخي خاص، ولكنه ليس وضعه ولا حالته أيضاً.

تقف الإيديولوجيا والالتزام السياسي حائلاً أيضا دون قرار الاصطفاف الكامل مع قضية المستعمَر العادلة. إذا كان هذا المستعمِر الرافض شيوعيا أو اشتراكياً يسارياً أو حتّى ديمقراطياً، فإنّه يُصادف معوّقات كثيرة في طريق التضامن، ذلك أنّ اليسار الأوروبي كثيراً ما يتوجّس من النزعة الوطنية والقومية Nationalisme، وذلك بسبب توجّهه العالمي والكوني. وبما أنّ أغلب الحركات الوطنية المقاومة اتخذت هذا المنحى، فثمّة – في نظر ميمي- ما يستدعي القلق لاسيما في ما يتعلّق بنموذج الدولة الوطنية بعد الاستقلال.

يبدو – في نظر ميمي- أسلوب الإرهاب الذي تدينه الحركات اليسارية العالمية مثالاً واضحاً على هذا القلق. إنّ الاغتيال السياسي –في تحليله- شكل من الإرهاب، لا يمكن التعاطف معه. وتتعمق مخاوفه أكثر من البعد الديني للحركات التحرّري. إنّ مفهوم الجهاد – مثلا - يرعبه والتخوّف من التحوّل إلى الأصولية يزعزع ثقته أكثر، وقد تتراءى له تباشير مستقبلية في قادة تقدميين، يعبرون عن الأشواق والاحتياجات بدون غطاء سحري Non mystifiés، ويدافعون عن المصالح الأخلاقية والاشتراكية كما يقول ميمي. وتبلغ الريبة ذروتها عندما يتحدث صحافي فرنسي في أسبوعية شهيرة تعبّر عن اليسار الفرنسي عن أنّ «الوضعية الإنسانية قد تعني القرآن والجامعة العربية»[14] بوصفهما رمزين – في رأي اليسار الفرنسي خصوصاً- للإقصاء والأصولية والانغلاق.

ما الذي يضمن ألاّ تتحوّل نضالاته الديمقراطية والاشتراكية إلى نموذج بائس من الدولة التيوقراطية التي أوّل ما تعاديه هو اليسار نفسه؟ وما الذي يضمن أن هذه الدولة المستقلة ستقبل بوجوده أصلاً، وألاّ تعتبره من بقايا الآلة

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/465

الكولونيالية القمعية بغض النظر عن نضاله ومساندته؟ وإذ تتداعى هذه الأوهام عنده يتساءل بحيرة: لماذا يناضل من أجل نظام اجتماعي لن يجد فيه مكانا؟ وهكذا يبدأ في استخلاص الدروس، إنّ عليه أن يصمت، ولكن ألا ينتهي هذا الصمت إلى شكل من أشكال التمزّق، أليس ما يفعله هو جهد ونضال من أجل عدالة مجرّدة Justice abstraite ومن أجل مصالح لا تخصّه أصلا[15].

وبعد، هل هذه الهواجس والمخاوف هي هواجس المستعمِر الرافض للكولونيالية أم هي أوهام وقلق ألبير ميمي نفسه بوصفه منتمياً إلى طائفة تقدم نفسها على أنّها مُضطهَدة؟

يمكن أن نعتبر – استناداً إلى عملية حفرية في الفكر الغربي الذي أنتجه اليهود- بأنّ تحفظات المستعمِر الرافض والتي هي تحفظات ميمي اليهودي أعني بذلك: الروح الوطنية والقومية والأصولية، تندرج كلها في سياق مقاومة الشرّ عند المفكرين اليهود. وعلى هذا الأساس، بُنيت فلسفة الفلاسفة الجدُد في فرنسا: برنار هنري ليفي B. Henri levy وأندريه كلوكسمان A. Gluksman وغيرهما على هذا المبدأ. وعمل فلاسفة مدرسة فرانكفورت على تحليل أشكال السيطرة في المجتمع الرأسمالي وكيف أنّ معاداة السامية في الغرب هي شكل من أشكال «عودة الحضارة المتنوّرة إلى حالة من البربرية»[16]. وقدمت المفكرة الألمانية اليهودية حنّا أرندت H. Arendt تحليلات معمقة لطبيعة الأنظمة التوتاليتارية من نازية وستالينية وفاشية... حيث «يتلازم الإرهاب والحملة الدعائية، حتى ليكونا وجهين لعملة واحدة... إذ أنّى حلّت التوتاليتارية وبسطت رقابتها المطلقة، أبدلت الدعاية بالتلقين العقائدي وشرعت في استخدام العنف لتحقيق عقائدها الإيديولوجية»[17]. وقبل ذلك كان ماركس وفرويد ثم إيمانويل ليفناس E. Levinas ودريدا وإدغار موران E. Morin ... وغيرهم يعملون على تقويض كافة أشكال الهيمنة والتمركز والسيطرة، ويوجهون ذلك لأهداف تخصّ كيان الجماعة، ذلك أنه كما يقول مالك بن نبي «الشعب اليهودي هو الوحيد الذي عرف كيف يجمع نشاطاته في هدف واحد هو تنظيمها الداخلي، بمعنى أن يوّظف مختلف الإنجازات في خدمة الهدف النهائي الذي يسعى إليه مجتمع جيد التنظيم»[18]. وربما كان عمل ميمي متماشيا مع هذا المسار في حدود معينة.

ب- المستعمِر القابل Colonialiste والإيديولوجيا السحرية:

يمثّل هذا الصنف نموذج المستعمِر الذي يقبل بالمشروع الكولونيالي ويدافع عنه، ويسعى إلى شرعنته. إن مواقفه تبدو أكثر منطقية وانسجاماً من الصنف الأوّل، «الأوّل

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/465

يحاول – دون فائدة- أن يقرن حياته بأديولوجيته، أمّا الثاني فيقرن أيديولوجيته بحياته»[19]. ومن هذا المنطلق يستجمع المستعمِر الذي يقبل بالمنظومة الكولونيالية كافة المرجعيات والمعارف التاريخية والميثولوجية والنفسية والعقلية من أجل تأسيس "ميثيولوجيا بيضاء"، تقدم المبرّرات المنطقية لوجوده ومصيره. إنّه متحرّر من كافة المخاوف والتوجّسات والأوهام، يشيّد مشروعه بأناة وثقة.

فهو يبرّر كلّ شيء، الأشخاص والنظام والممارسة، يعطي الانطباع بأنّه لا يرى البؤس والظلم اللذين يصدمانه في الواقع. وعندما يقبل بوضع المستعمِر، فإنّه يقبل - بالضرورة- بوضع صاحب الامتيازات غير الشرعي، أي بوضع المغتصب Usurpateur، «يُجهد نفسه لتزوير التاريخ، يعيد كتابة النصوص، يطمس الذاكرة، يفعل كلّ شيء من أجل أن يحوّل اغتصابه إلى شرعية»[20]، عبر آليتين تعتبران من أهم آليات الفكر المتمركز حول ذاته وهما: البرهنة على مؤهّلات المغتَصِب وميزاته Mérites وفي الوقت نفسه على التأكيد على نقائص المغتصَب Démérites. وبقدر ما يُسحقَ الثاني ينتصر الأوّل في الاغتصاب، ولكنه – في الوقت نفسه- يعمّق شعوره بالذنب وإدانته. وفي ظل هذا القهر، يغدو نيرون Néron هو الوجه المثالي عنده، وتغدو عقدة نيرون Complexe de Néron صورة ملازمة له.

إنّ الوضع الكولونيالي يصنع مستعمِرين ومستعمَرين، فهذا النموذج من المستعمِر القابل لم يختر نموذجاً فكرياً، بقدر ما اختار نمط حياة ووجود، قد يكون –كما يقول ميمي- صديقاً حميماً أو أباً عطوفا. وقد يكون في بلده الأصل وبفعل ظروف اجتماعية معيّنة ديمقراطياً، ولكنه يتحوّل فجأة إلى محافظ وفاشي، يقبل بالتمييز والظلم، يتمتع بالتعذيب البوليسي، وإذا لزم الأمر يبرّر جرائم الإبادة الجماعية، فقط من أجل حماية مصالحه.

يدافع عن وجوده باستمرار، «أحيانا يلحّ على صعوبات وجوده الغرائبي، وخيانة هذا المناخ القاسي، انتشار الأمراض، الصراع على أرض لا تردّ الجميل Sol ingrat، عدم ثقة أناس معادين، كل ذلك ألا يستحق هذه المكافأة»[21]. إنّه يقدم نفسه ضحية باستمرار ومن هنا يتعمق تمزقه الداخلي.

يلجأ باستمرار إلى تمجيد وطنه الأصلي والإشادة بتقاليده المتميّزة، وأصالته الثقافية، يقدّس مظاهر القوّة ورموزها الساطعة، يحضر كل التظاهرات العسكرية، يُعجب بالجيش والقوّة والأزياء النظامية، وفي كلّ ذلك يسعى إلى شدّ انتباه المستعمَر أكثر من أن يطمئن نفسه.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/465

والحصيلة أنّ سلوكه يتماهى مع السلوك الفاشي، ذلك أنّ «كلّ أمّة كولونيالية تحمل في ثناياها بذور النزعة الفاشية»[22]. والمستعمِر لا يمكن إلاّ أن يساند أنظمة القمع والقهر والمحافظة. وهنا لابدّ من العودة إلى تراث مقاومة الشمولية والسلطة المطلقة لدى مفكري الغرب اليهود وعلى رأسهم حنّا أرندت.

يعيش المستعمِر القابل تناقضات رهيبة، فهو يؤكد أنّ الأمور كانت وستكون على ما يرام لو لم يكن هؤلاء الأهالي، ولكنه يدرك أيضا أن المستعمَرة Colonie لن يكون لها أيّ معنى بدون هؤلاء. هذا التناقض الرهيب يملأه رعباً وحقداً لا مثيل لهما، ويعمق أكثر وجوده التراجيدي.

يختلق هذا النموذج منظومة من الاهتمامات العبثية تستهدف نزع القيمة عن الآخر. يقول ميمي بأن أحد الأطباء أخبره بأنّ المستعمَر لا يعرف كيف يتنفس، وأنّ أستاذاً شرح له كيف أنّ الأهالي لا يعرفون كيف يمشون، إنهم يقومون بخطى قصيرة لا تجعلهم يتقدمون.

وهكذا تطال هذه الاتهامات كلّ ما يمسّ المستعمَر، فبلاده مثلاً قبيحة، شديدة الحرارة، بردها عجيب، مناخها قاس، جغرافيتها تولّد بصفة جبرية الاحتقار والفقر والخضوع إلى الأبد[23].

ينتج الوضع الكولونيالي حالة من العنصرية، ليست بالضرورة ذات طابع فكري أو مذهبي، فالمستعمِر بطبيعته ينأى عن النظرية والمنظرين، ويبتعد عن الجدل الفكري والمحاججة الفلسفية. فالعنصرية ليست حادثاً طارئاً في المنظومة الاستعمارية، بل هي عنصر تكويني جوهري فيها. وكثيرا ما يستند والفكر العنصري إلى مفهوم الطبيعة الجبرية، «فالعبودية راسخة في طبيعة المستعمَر، والهيمنة متأصلة في طبيعة المستعمِر»[24]. ليس هناك حلّ لهذه الإشكالية، فقوانين الطليعة قضت بذلك، وعليه فالاستعمار خالد وباق. وهكذا يلجأ المستعمِر إلى النزعة الإطلاقية Absolution بوصفها سلاحاً للدفاع عن الذات والوجود.

تتأسس العنصرية مكوناً بنيوياً في الفكر الكولونيالي. وهكذا نقرأ مثلاً عن توكوفيل A. de Tocqueville ما يلي: «نحن أكثر تنوراً وقوّة من العرب... ولا نستطيع أن ندرس الشعوب البربرية إلاّ والسلاح في اليد. لقد هزمنا العرب قبل أن نعرفهم»[25]، فضلا عن تراث كامل من الفكر الاستعماري لدى هيغل -مثلاً- في موقفه من إفريقيا وماركس في تحليله للهند...

وفي سياق نزع القيمة Dévalorisation بصورة ممنهجة عن المستعمَر، يوّجه المستعمِر سلسلة من الانتقادات لقيم الأوّل (الكرم، الضيافة، البساطة...) معرّياً

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/465

ومقوّضاً. وفي ذلك يلجأ إلى النزعة التعميمية أو ما يسمّيه ميمي La marque du pluriel أو الافتقار لكل بعد اجتماعي وتاريخي: L'indépendance de l'accusation de toutes conditions sociologique et historiques.

جـ المستعمَر خارج التاريخ:

يعمل المشروع الكولونيالي بأدواته المختلفة على وضع المستعمَر خارج التاريخ، يسقط عنه كلّ مسؤولية تاريخية أو اجتماعية، ينزع عنه كلّ قدرة على حكم ذاته. وإذْ ذاك يبدأ المستعمَر في خلق عالم يلجأ إليه، حيث يجده خاصة في القيم التقليدية وفي أحضان الأسرة والعشيرة. ويظهر الدين أيضا ملجأ وحضناً وسط هذا القهر وهذه الآلة القمعية. هكذا يتطرّف في تمجيد المظاهر الدينية والاحتفاء بالأعياد وتقديس مظاهرها كسلاح لمواجهة هذا المشروع.

ولا يسلم المستعمر من التمزقات الوجودية والسوسيولوجية والانكسارات النفسية التي يعيشها المستعمِر الرافض والقابل معاً، وإنْ بأشكال أخرى. فهو يهرب من الأمية ليرتمي في أحضان الازدواجية اللغوية والتمزّق اللغوي. فبفعل الشعور المستمر بأنّ لغته مداسة ومحتقرة، ينتهي المستعمَر إلى تمثّل هذا الشعور نفسيا وجودياً، فيتعمق لديه احتقار لغته ومحاولات إخفائها، وعدم الإحساس بالرضى سوى في لغة المستعمِر، والمسارعة إلى جعلها لغة الأدب والكتابة. إنّها دراما لغوية بامتياز Drame linguistique. وبحكم عمق هذه الازدواجية، يجد الكاتب المستعمَر نفسه لا يحسن أيّة لغة، ولذلك انتهى ألبير ميمي أنّ آداب الشعوب المستعمرة باللغات الأوروبية محكوم عليها بالموت في شبابها[26]. وإذْ يحتقر لغته فإنّه يحقد على ثقافته وفنونه وآدابه. «إنّ التباسه اللغوي هو الرمز، وأحد الأسباب الهامة في التباسه الثقافي»[27]

. في ظل هذا الوضع يهيمن عنصران في تكوين المستعمر: كره الذات والإعجاب بالآخر. وهكذا تبدأ رحلة تدمير الذات وسخفها، فعندما يتبنى قيم المنتصر «فإنّه يتبنى في الوقت نفسه إدانته الذاتية، ومن أجل أن يتحرّر –كما يعتقد- فإنّه يقبل بأن يدمر نفسه. وهو ما يماثل رُهاب الزنوجة Négrophobie عند الزنجي ومعاداة السامية عند اليهودي»[28].

خاتمـــة

هكذا يقدم ميمي تشخيصا سيكولوجياً عميقاً لنفسية المستعمِر والمستعمَر، و تفكيكا معرفيا لنظام تشكله ومرتكزات تكوينه الإيديولوجي والميثولوجي على حدّ سواء، ولكنه يرفض تقديم الحلول، إنّه ليس عملاً نضالياً، بل تحليلاً من

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/465

واقع تجربة تاريخية. وفي ذلك ما يجعله على مسافة مع خطاب حركة ما بعد الكولونيالية كما هو الشأن عند فرانس فانون وسيزير وغيرهما، حيث يتأسس التحليل الابستيمولوجي على موقف مناهض واضح.

لم تكن الإدانة واضحة عند ألبير ميمي في معظم كتاباته، فقد حضر الهدوء العقلي وساد التردد في إطلاق الأحكام، وهو ما يذكرنا بمواقف دريدا وألبير كامي المتوجسة والغارقة في الأسئلة القلقة بخصوص قضايا مصيرية كبرى.

الهوامش:

1- Alain Gresh, l'Islam, la république et le monde, éd casbah, Alger, 2006, P 12.

2- جاك دريدا، أحادية الآخر اللغوية، تر: عمر مهيبل، منشورات الاختلاف، الجزائر، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ط1، 2008، ص 55.

3- المرجع نفسه، ص 83.

4- ميشيل فوكو وجاك دريدا، حوارات ونصوص، تر: محمد ميلاد، دار الحوار، اللاذقية، ط1، 2006، ص 163.

5- راجع مقالة ألبير ميمي: Juif Tunisien et français على الموقع الإلكتروني: www.harrissa.com

6- Tassadit Yacine, Jean Amrouche: l'éternel exilé, ed casbah, Alger, 2012, P 41.

7- Daniel Temsit, Algérie : Récit Anachronique, edif 2000 – ed Bouchenne, 1998, P 24.

8- Frantz Fanon, les damnés de la terre, ENAG ed, Alger, 1987, P 278.

9- آنيا لومبا، في نظرية الاستعمار وما بعد الاستعمار الأدبية، تر: محمد عبد الغني غنوم، دار الحوار، اللاذقية، ط1، 2007، ص150.

10- Albert Memmi, portrait du colonisé, Ministère de la culture, Alger, 2009, P 10.

11- راجع هذه الأقسام في المرجع السابق، ص 18 وما بعدها.

12- Albert Memmi, portrait du colonisé, P 30.

13- Ibid, P 31.

14- Ibid, P 44.

15- Ibid, P 50-51.

16- ماكس هوركايمر وتيودور أدورنو، جدل التنوير: شذرات فلسفية، تر: جورج كتورة، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط1، 2006، ص 20.

17- حنّا أرندت، أسس التوتاليتارية، تر: أنطوان أبو زيد، دار الساقي، بيروت، ط1، 1993، ص 79.

18- مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ج2، دار الوعي، الجزائر، ط1، 2013، ص65.

19- Albert Memmi, portrait du colonisé, P 53.

20- Ibid, P 60.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/465

21- Ibid, P 64.

22- Ibid, P 70.

23- Ibid, P 74.

24- Ibid, P 82

25- Alexis de Tocqueville, seconde lettre sur l'Algérie, ed Zirem, Bejaia, 2006, P 10.

.11526- Albert Memmi, portrait du colonisé, P

27- Ibid, P 112-113.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/465